وَالْخَيْلَ قَدْ فَصَّلَ الضِّيَاعَ بِهَا
وَالنِّعَمَ السَّابِغَاتِ وَالنِّقَمَا[١]
فَلْيُرِنَا الْوَرْدُ إِنْ شَكَا يَدَهُ
أَحْسَنَ مِنْهُ مِنْ جُودِهِ سَلِمَا[٢]
فَقُلْ لَهُ لَسْتَ خَيْرَ مَا نَثَرَتْ
وَإِنَّمَا عَوَّذَتْ بِكَ الْكَرَمَا[٣]
خَوْفاً مِنَ الْعَيْنِ أَنْ يُصَابَ بِهَا
أَصَابَ عَيْناً بِهَا يُصَابُ عَمَى[٤]

لا يسلم الشرف الرفيع

مر في طريقه على إسحاق بن الأعور بن إبراهيم بن كيغلغ وكان محافظاً على طريق طرابلس فطلب منه أن يمدحه، فاحتج بأنه قد حلف أن لا يمدح أحداً في الطريق فاعتاقه إسحاق عن طريقه، ولما فارقه قال يهجوه ويمدحُ أبا العشائر بهذه القصيدة وقد حذفت منها أبيات:

[الكامل]

لِهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لَا تُعْلَمُ
عَرَضاً نَظَرْتُ وَخِلْتُ أَنِّي أَسْلَمُ[٥]

---

(١) السابغات: التامّات. يُردف الشاعر مدحه لممدوحه؛ لقد جعل من خيوله سبيلاً لوحدة وجمع تلك الديار التي أخضعها بسيوفه، فنظمها إقطاعات يقوم على رعايتها والعناية بأمور مواطنيها. لذا فقد أسبغ عليهم من نعمه، فهم في بحبوحة من العيش، وفي المقابل أذاق أعداءه صنوف العذاب ألواناً، فانتقم منهم أشدّ انتقام؛ كلّ ذلك بفضل تلك الخيول والجيش العظيم.

(٢) يُحاول أن يستدرّ مال ممدوحه، يستحسن الشاعر نثر الممدوح ورده وقد شكا منه الإسراف في ذلك، فإذا به يُثير فيه حاسة الجود، فلينثر دنانيره وذهبه على الشاعر، فتكتمل الفرحة ويعمّ السرور المكان.

(٣) و (٤) عوّذه رقاه رقية لدفع الأذى عنه. يرى الشاعر أن ما نثرته يد ممدوحه من ورود، فليس أفضل ما نثرت، وإنما يقصد به دفع عيون الحاسدين وقاية لكرمه الحقيقي، فلو رأوه يجود بالأموال بكثرة لانصبّت عيون الحاسدين تبغي ضرره، فلْتعم عيونهم.

(٥) يروى «القلوب» بدلاً من «النفوس». السريرة: السرّ. عرضاً: فجاءة. يبدأ الشاعر =

يَـا أُخْـتَ مُـعْـتَـنِـقِ الْـفَـوَارِسِ فِـي الْـوَغَـى
لَأَخُـوكِ ثَـمَّ أَرَقُّ مِـنْـكِ وَأَرْحَـمُ (١)
يَـرْنُـو إِلَـيْـكِ مَـعَ الْـعَـفَـافِ وَعِـنْـدَهُ
أَنَّ ٱلْـمَـجُـوسَ تُـصِـيـبُ فِـي مَـا تَـحْـكُـمُ (٢)
رَاعَـتْـكِ رَائِـعَـةُ الْـبَـيَـاضِ بِـمَـفْـرِقِـي
وَلَـوْ أَنَّـهَـا الْأُولَـى لَـرَاعَ الْأَسْـحَـمُ (٣)
لَـوْ كَـانَ يُـمْـكِـنُـنِـي سَـفَـرْتُ عَـنِ الـصِّـبَـا
فَـالـشَّـيْـبُ مِـنْ قَـبْـلِ الْأَوَانِ تَـلَـثُّـمُ (٤)
وَلَـقَـدْ رَأَيْـتُ ٱلْـحَـادِثَـاتِ فَـلَا أَرَى
يَـقَـقـاً يُـمِـيـتُ وَلَا سَـوَاداً يَـعْـصِـمُ (٥)

= قصيدته بمطلع غزلي، الهوى حال جذب وجداني وشعوري يُنتج تعلّقاً، فيميل الحبيب إلى حبيبه ولا يعرف سبباً مقنعاً، فثمة شيء غامض يُحرّك مشاعر البشر فيتحابّون، إنه سرّ إلهي عجيب، ولقد تطلّع الشاعر من غير قصد، فإذا به يعشق عينين ساحرتين، ولم يدر في خلده أن تستميله إليها بدلّها وعنجها.

(١) و (٢) وردت الأبيات الخمسة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٠. الوغى: الحرب. يُخاطب الشاعر حبيبته، إن أخاها بطل مغوار يُعتق الأبطال الذين يقعون في قبضة يده، في أسره، فيعيد لهم حرّيتهم، لذا فهو يمتاز بالرقّة لحاله ويرحم ضعفه، فهو أرحم منها في كلّ حال، ومع ذلك فهو ينظر إليها نظر المحب العفيف ويتمنى الزواج منها على مذهب المجوس الذين يُبيحون الزواج بالأخوات.

(٣) راعتك: أرعبتك. يروى «بعارضي» بدلاً من «بمفرقي». العارض: صفحة الوجه. الأسحم: الأسود. من الطبيعي أن النساء يملن إلى الفتوة والشباب، ولقد بدأت طوالع الشيب تغزو لحية الشاعر، ممّا أرعب حبيبته فصدّت عنه، حتى الشعر الأسود حالما رأى الشيب لأول وهلة دبّ فيه الخوف من مقبل الأيام.

(٤) سفرت: كشفت. التلثّم: شدّ اللثام على الفم. يردف الشاعر أنه لو أمكنه أن يزيل ذلك الطارئ وبدا كلثام لفعل، فتحت الشيب لا زال الصبا يموج في خديه رغم بوادر الشيب الأولى، والصبا حالة نفسية لدى بعض من بدأ يتقدّم في السّنّ.

(٥) اليقق: الأبيض. يعصم: يحفظ. يرى الشاعر أن الموت لا يرتبط بالشيب فقد يُعمّر =

وَالْـهَـمُّ يَـخْـتَـرِمُ ٱلْـجَـسِـيـمَ نَـحَـافَـةً
وَيُـشِـيـبُ نَـاصِـيَـةَ الـصَّـبِـيِّ وَيُـهْـرِمُ[١]
ذُو الْـعَـقْـلِ يَـشْـقَـى فِـي الـنَّـعِـيـمِ بِـعَـقْـلِـهِ
وَأَخُـو ٱلْـجَـهَـالَـةِ فِـي الـشَّـقَـاوَةِ يَـنْـعَـمُ[٢]
وَالـنَّـاسُ قَـدْ نَـبَـذُوا الْـحِـفَـاظَ فَـمُـطْـلَـقٌ
يَـنْـسَـى الَّـذِي يُـولَـى وَعَـافٍ يَـنْـدَمُ[٣]
لَا يَـخْـدَعَـنَّـكَ مِـنْ عَـدُوٍّ دَمْـعُـهُ
وَٱرْحَـمْ شَـبَـابَـكَ مِـنْ عَـدُوٍّ تَـرْحَـمُ[٤]

= المرء رغم تقدّمه بالسنّ ويموت الفتى في ريعان شبابه والشعر الأسود يغطي رأسه.

(١) يخترم: يميت. الجسيم: السمين. النحافة: الهزال. الناصية: شعر مقدم الرأس. يرى الشاعر أن سبب تحوّل أحوال البشر وموتهم من نعمة الصحة والعافية إلى حالة المرض الهموم التي تجعل مقدمة ناصية الفتى يدبّ فيها الشيب وتستولي عليه الشيخوخة المبكرة.

(٢) يرى الشاعر أنه لا تتمّ النعم لدى بني البشر، فلا بدّ لها ممّا ينغّص التنعّم بها؛ فالعقل نعمة لا تقدّر بثمن، ومع ذلك فلا بدّ من منغصات، كالإحساس بالظلم وعدم تقدير الهبات والمواهب من قبل الآخرين كالحسد والكيد، وفي بعض الأحيان السخرية من أمثال ذوي العقول النيّرة، وفي المقابل فمن حرم من نعمة العقل، فإنه يفعل ما يحلو له دون مساءلة أو لوم من قبل الآخرين بحجّة أنه لا عقل له.

(٣) نبذوا: طرحوا. الحفاظ: المحافظة على حقوق الآخرين. النسيان نعمة في بعض الأحيان، يشفي المرء من جراحات أليمة، كالموت والمرض والإساءة وسواها، ولكنه سيّئ في حالات عديدة، فالحفاظ على العهد والصداقة والقرابة والمواطنية ضرورة من ضرورات الحبّ والودّ بين بني البشر، فمن نسي أو تناسى، فإنه بلا شك لئيم الطبع، والتكبّر من أكبر دواعي ذلك، فلا بدّ للاعتراف بمطلق إنسان من الأسر ألا ينسى ذلك لمن أطلق يديه وأنعم عليه بالحرية، وكذلك لا بدّ من تقدير من عفا وهو قادر على الاقتصاص؛ فحلمه حمله على ذلك، ولا بدّ من مراعاته في وقوعه بين يدي من عفا لخطأ ارتكبه ولم يقصد الإساءة إليه.

(٤) يطلب الشاعر من البشر ألا ينخدعوا من أعدائهم لبكائهم استدراراً لعطفهم علّهم يخدعونهم لينقضّوا عليهم إذا ما سنحت الفرصة، وهنا على المرء أن يرحم نفسه ويُحافظ على وجوده موفور الكرامة؛ ففي حال ضعفه فلن يجد عدوًّا راحماً.

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى
حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ[١]
يُؤْذِي القَلِيلُ مِنَ اللِّئَامِ بِطَبْعِهِ
مَنْ لَا يَقِلُّ كَمَا يَقِلُّ وَيَلْؤُمُ[٢]
والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ
ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ[٣]
وَمِنَ الْبَلِيَّةِ عَذْلُ مَنْ لَا يَرْعَوِي
عَنْ غَيِّهِ وَخِطَابُ مَنْ لَا يَفْهَمُ[٤]

---

(١) ورد البيت في أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٠٠. يُراق: يُسفك. الشرف تتمثل فيه الفضائل الرفيعة والنبل في أرقى معانيها، وذلك من أهم صفات العربي المسلم، وللمحافظة عليه كانت حروب دامية لأتفه الأسباب في التاريخ العربي، وردّ العدوان لا يكون إلّا بالعدوان يرهب الأعداء فيحملهم ذلك على الاستكانة والخضوع.

(٢) يرى الشاعر القليل من يفتقد في نفسه عوامل الحياء، فكان خسيس الطبع في معاملاته، فإذا به يتعدّى على الكرماء؛ فكلّما تجنّبه هؤلاء زاد لؤماً وخسّة طبع.

(٣) ورد البيت في حاشية يس على التصريح ١: ٢٥٠. الشيم، الواحدة شيمة: الخلق. يروى «في خلق النفوس» بدلاً من «من شيم النفوس». يرى الشاعر أن البشر مطبوعون على الظلم، وذلك مغروس في جبلتهم الأولى، ولا يستطيعون الخلاص إلا برادع منها، قوامه دين قويم وأخلاق رفيعة، وإلّا فالأمر يتعلّق بجبن بعضهم وخسته.
ـ ملاحظة: هجا الشاعر ابن كيغلغ في هذا الموضع من القصيدة بأبيات خمسة فيها إسفاف تنمّ عن المستوى الأخلاقي للشاعر، فلم أوردها في الديوان.

(٤) وردت الأبيات الأربعة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٠. يروى «عن جهله» بدلاً من «عن غيّه». البلية: المصيبة. العذل: اللوم. يرعوي: يكفّ، يرتدع. الغيّ: الجهل. يرى الشاعر أنه خطأ أن يعمد المرء إلى لوم من لا يرتدع عن السفه والطيش من الجهلة، فذلك يدفعهم إلى الإمعان في ضلالتهم وطيشهم، فهم لا يفهمون الغاية من وراء نصحهم، لأنهم لا يفهمون لتحجّر عقولهم وانسداد أفهامهم.
ـ ملاحظة: يُورد الشاعر بيتاً فيه إسفاف بعد البيت السابق لم أذكره لإسفافه.

وَجُـفُـونُـهُ مَـا تَـسْـتَـقِـرُّ كَـأَنَّـهَـا
مَـطْـرُوفَـةٌ أَوْ فُـتَّ فِـيـهَـا حِـصْـرِمُ[١]
وَإِذَا أَشَـارَ مُـحَـدِّثـاً فَـكَـأَنَّـهُ
قِـرْدٌ يُـقَـهْـقِـهُ اوْ عَـجُـوزٌ تَـلْـطِـمُ[٢]
يَـقْـلَـى مُـفَـارَقَـةَ الأَكُـفِّ قَـذَالُـهُ
حَـتَّـى يَـكَـادَ عَـلَـى يَـدٍ يَـتَـعَـمَّـمُ[٣]
وَتَـرَاهُ أَصْـغَـرَ مَـا تَـرَاهُ نَـاطِـقـاً
وَيَـكُـونُ أَكْـذَبَ مَـا يَـكُـونُ وَيُـقْـسِـمُ[٤]
وَالـذُّلُّ يُـظْـهِـرُ فِـي الـذَّلِـيـلِ مَـوَدَّةً
وَأَوَدُّ مِـنْـهُ لِـمَـنْ يَـوَدُّ ٱلأَرْقَـمُ[٥]
وَمِـنَ الْـعَـدَاوَةِ مَـا يَـنَـالُـكَ نَـفْـعُـهُ
وَمِـنَ الـصَّـدَاقَـةِ مَـا يَـضُـرُّ وَيُـؤْلِـمُ[٦]

(١) و (٢) طرفت عينه: أصيبت عينه بشيء جعلها تدمع. الحصرم: العنب الأخضر الحامض. يصف الشاعر مهجوّه ابن كيغلغ بما يستبشع من حركات عينيه، ويُتابع الهجوم عليه؛ إنه مثير للضحك، فلا يُحسن النطق فيلجأ إلى الإشارة كأنه قرد يقوم بحركات مضحكة، أو أنه امرأة مسنّة ثكلى تلطم وجهها لفقدها عزيزاً على قلبها.

(٣) القلى: البغض والكراهية. القذال: جماع مؤخر الرأس. لقد ألف ابن كيغلغ واعتاد على لطم قذاله وصفعه بالأكف، فإن لم يجد من يصفعه عمد إلى يده ليصفع نفسه بها.

(٤) ورد البيت في أمالي ابن الشجري ١: ٣٥٠. يصف الشاعر مهجوّه هجاءً مسخيًّا بما يُثير ضحك الناظر إليه. وهو في حال نطقه ينكمش على نفسه، ولعلّ ذلك من الرهب أو الخوف. ومن طبعه الكذب وتأكيداً على كذبه يُقسم الأيمان المغلظة.

(٥) الأرقم: ضرب من الحيات فيه سواد وبياض، وهو من أخبث الحيات. يرى الشاعر أن طبيعة الذلّ في نفس المرء تحمله على إرضاء مذلّه، فيتودّد إليه كما يتودّد إلى أخبث الحيات من الأراقم التي تعضّ وعضّتها قاتلة مميتة.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥١. يُردف الشاعر أن خسيس النفس يُضمر ما فيها من عداء لقاهره وظالمه، فإذا اكتشف أمره واطلع على حقيقته =

أَرْسَلْتَ تَسْأَلُنِي الْمَدِيحَ سَفَاهَةً
صَفْرَاءُ أَضْيَقُ مِنْكَ مَاذَا أَزْعُمُ[١]
فَلَشَدَّ مَا جَاوَزْتَ قَدْرَكَ صَاعِداً
وَلَشَدَّ مَا قَرُبَتْ عَلَيْكَ الأَنْجُمُ[٢]
وَأَرَغْتَ مَا لِأَبِي الْعَشَائِرِ خَالِصاً
إِنَّ الثَّنَاءَ لِمَنْ يُزَارُ فَيُنْعِمُ[٣]
وَلِمَنْ أَقَمْتَ عَلَى الْهَوَانِ بِبَابِهِ
تَدْنُو فَيُوجَأُ أَخْدَعَاكَ وَتُنْهَمُ[٤]
وَلِمَنْ يُهِينُ الْمَالَ وَهْوَ مُكَرَّمٌ
وَلِمَنْ يَجُرُّ الْجَيْشَ وَهْوَ عَرَمْرَمُ[٥]

= أمره كان ذلك سبب مضرّته، لأنّ قاهره يحتاط لأمره منه، إنها صداقة ليست متكافئة تحمل في طيّاتها ألماً وأذاة للقاهر إذا انتهز الذليل فرصة الغدر، لفعل.

(١) يُخاطب الشاعر ابن كيغلغ أنه طلب منه أن يمدحه، وهذا سفه منه لعدم معرفته بطبيعة المتنبي المتأله فلا ينزل إلى مستواه، وأمه صفراء ضيّقة الأفق صغيرة العقل، لذا فكيف يمدحه في هذه الحالة؟
ـ ملاحظة: ثمة بيت ورد بعد هذا البيت فيه إسفاف لم أذكره لذلك.

(٢) يستغرب الشاعر كيف استطاع ابن كيغلغ أن يطلب منه ذلك على ما هو عليه من ذلّة، ولقد ظن ظناً باطلاً أنه باستطاعته أن ينال النجوم بنفسه وأن يسمع مديحاً يُخلّده، والحقيقة أن الشاعر قد خلّده بأسوأ ما يُخلد امرؤ.

(٣) أرغت: طلبت. ينعى الشاعر على ابن كيغلغ بخله، فالمديح يُثيره جود الممدوح، فقد طلب ما ليس له بحقّ، وذلك من حقّ أبي العشائر الكريم الذي يُكرم ضيوفه ومادحيه، فضلاً عمّا يتّصف به من مزايا ليست موجودة عند ابن كيغلغ.

(٤) الأخدعان: عرقان في صفحتي العنق قد خفيا وبطنا. الوجء: الضرب. النهم: الزجر الشديد. يُتابع الشاعر فكرته مبيّناً حالة ابن كيغلغ وأبي العشائر. لقد كان يقف ببابه حتى يدخل عليه ولطالما صفع إذلالاً له، فأخدعاه اعتادتا على ذلك.

(٥) يمدح الشاعر أبا العشائر، إنه كريم يُهين ماله، فإذا بالمواطنين يُثنون عليه ويمدحون سلوكه معهم، وهو من يتقدّم الجيش العظيم العرمرم، لشدته وقوّته.

وَلِـمَـنْ إِذَا ٱلْـتَـقَـتِ الْـكُـمَـاةُ بِـمَـأْزِقٍ
فَـنَـصِـيـبُـهُ مِـنْـهَـا الْـكَـمِـيُّ الْـمُـعْـلِـمُ[١]
وَلَـرُبَّـمَـا أَطَـرَ الْـقَـنَـاةَ بِـفَـارِسٍ
وَثَـنَـى فَـقَـوَّمَـهَـا بِـآخَـرَ مِـنْـهُـمُ[٢]
وَالْـوَجْـهُ أَزْهَـرُ وَالْـفُـؤَادُ مْـشَـيَّـعٌ
وَالـرُّمْـحُ أَسْـمَـرُ، والْـحُـسَـامُ مُـصَـمِّـمُ[٣]
أَفْـعَـالُ مَـنْ تَـلِـدُ الـكِـرَامُ كَـرِيـمَـةٌ
وَفَـعَـالُ مَـنْ تَـلِـدُ الأَعَـاجِـمُ أَعْـجَـمُ[٤]

---

(١) الكماة، الواحد كمي: البطل المدجج بالسلاح. المأزق: الشدّة والعسرة. المعلم: البطل الذي يميّز نفسه بعلامة في ساحات القتال. يُتابع الشاعر مدحه أبا العشائر إنه بطل صنديد يختار الكفوء له في الحرب، فيهاجمه ويصرعه في حومة الوغى.

(٢) و (٣) أطر: ثنى. ثقف: أَجلس. يُتابع الشاعر وصف شجاعة وقوة أبي العشائر، إنه يستعمل رمحه ضدّ خصمه، فإذا احترق جسده والتوى ثنّى بآخر، فإذا به يعود مثقّفاً كما كان. وهو في كلّ حال مشرق الوجه باسم، يلتقي خصمه بقلب كالحديد بجرأة، وبيده رمح مثقّف يخترق الأجسام بقوّة وعزم أكيدين، وسيف يبتر كلّ شيء نزل به، فلا ينبو مهما كانت الأحوال.

(٤) يخلص إلى رأي شعوبي، فالعرب كرام الأنساب يتحدّرون من آباء عظام، وفي مقابلتهم أعاجم لا يحسنون نطقاً ومن بينهم ابن كيغلغ، فهم لئام الطبع والنسب، وأعمالهم على شاكلتهم لا تُفسّر إلّا بأنها أعجمية.